

درس 88 حياته ع قبل البعثة

سيرته صلى الله عليه وسلم في قومه قبل النبوة

قد علمت أن الله تعالى قد أكرم آل حليلة السعدية التي أرضعته صلى الله عليه وسلم، فَبَدَّلَ عُسْرَهُمْ يُسْرًا وَأَشْبَعُ غُنَيْمَاتَهُمْ وَأَدْرَّ ضُرُوعَهَا فِي سَنَةِ الْجَدْبِ وَالشَّدَةِ، كَمَا بَارَكَ سَبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِي رِزْقِ عَمِّهِ أَبِي طَالِبٍ حِينَمَا كَانَ فِي كِفَالَتِهِ، مَعَ ضَيْقِ ذَاتِ يَدِهِ، وَأَنَّهُ سَبْحَانَهُ وَتَعَالَى كَانَ يَسْخَرُ لَهُ الْعِمَامَةَ تُظِلُّهُ وَحَدَّهُ مِنْ حَرِّ الشَّمْسِ فِي سَفَرِهِ إِلَى الشَّامِ، فَتَسِيرُ مَعَهُ أُنَى سَارٍ دُونَ غَيْرِهِ مِنْ أَفْرَادِ الْقَافِلَةِ.

وكان سبحانه وتعالى يلهمه الحق ويرشده إلى المكارم والفضائل في أموره كلها، حتى إنه كان إذا خرج لقضاء الحاجة في صغره يُعَدُّ عَنِ النَّاسِ حَتَّى لَا يُرَى.

وكان سبحانه وتعالى يكرمه بتسليم الأحجار والأشجار عليه، ويُسْمَعُ ذَلِكَ فَيَلْتَقِطُ عَنِ يَمِينِهِ وَشِمَالِهِ فَلَا يَرَى أَحَدًا.

وقد كان علماء اليهود والنصارى - رهبانهم و كهنتهم - يعرفون زمن مجيئه صلى الله عليه وسلم مما جاء من أوصافه في التوراة وما أخبر به المسيح عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام فكانوا يسألون عن مولده وظهوره وقد عرفه كثيرون منهم لمَّا رَأَوْا ذَاتَهُ الشَّرِيفَةَ أَوْ سَمِعُوا بِأَوْصَافِهِ وَأَحْوَالِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وقد نشأ سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ممتازاً بكمال الأخلاق، متباعداً في صغره عن السَّفَاسِيفِ التي يشتغل بها أمثاله في السن عادة، حتى بلغ مبلغ الرجال فكان أرجح الناس عقلاً، وأصحهم رأياً، وأعظمهم مروءة، وأصدقهم حديثاً، وأكبرهم أمانة، وأبعدهم عن الفحش، وقد لقبه قومه (بالأمين)، وكانوا يُودِعُونَ عنده ودائعهم وأماناتهم. وقد حفظه الله تعالى منذ نشأته من قبائح أحوال الجاهلية، وبِعَضِّ إِلَيْهِ أَوْثَانِهِمْ حَتَّى إِنَّهُ مِنْ صِغَرِهِ كَانَ لَا يَحْلِفُ بِهَا وَلَا يَحْتَرِمُهَا وَلَا يَحْضُرُ لَهَا عِيدًا أَوْ احْتِفَالًا، وَكَانَ لَا يَأْكُلُ مَا ذَبَحَ عَلَى النَّصْبِ، وَ النَّصْبُ هِيَ حِجَارَةٌ كَانُوا يَنْصُبُونَهَا وَيَصْبُونَ عَلَيْهَا دَمَ الذَّبَائِحِ وَيَعْبُدُونَهَا.

ولقد كان صلى الله عليه وسلم لين الجانب يَحْنُ إِلَى الْمَسْكِينِ، وَلَا يَحْقَرُ فَقِيرًا لَفَقْرِهِ، وَلَا يَهَابُ مَلِكًا لِمُلْكِهِ، وَلَمْ يَكُنْ يَشْرَبُ الْخَمْرَ مَعَ شَبِيعِ ذَلِكَ فِي قَوْمِهِ، وَلَا يَزْنِي وَلَا يَسْرِقُ وَلَا يَقْتُلُ، بَلْ كَانَ مُلتزماً لمكارم الأخلاق التي أساسها الصدق والأمانة والوفاء.

وبالجملة حَفِظَهُ اللهُ تَعَالَى مِنَ النَّقَائِصِ وَالْأُدْنَاءِ قَبْلَ النَّبُوَّةِ كَمَا عَصَمَهُ مِنْهَا بَعْدَ النَّبُوَّةِ.

وكان يلبس العمامة والقميص والسراويل، ويئزر (الإزار الذي يكسو النصف الأسفل من البدن) ويرتدى بأكيسة من القطن، وربما لبس الصوف والكثان، ولبس الخُفَّ والنَّعال وربما مشى بدونها. وركب الخيل والبغال والإبل والحمير. وكان ينام على الفراش تارة وعلى الحصير تارة وعلى السرير تارة وعلى الأرض تارة، ويجلس على الأرض، ويخسف نَعْلَهُ، (أي يخيطنها ويصلحها) ويرقع ثوبه، وقد اتخذ من الغنم والرقيق من الإماء والعبيد بقدر الحاجة. وكان من هديه في الطعام ألا يرُدَّ موجوداً ولا يتكاف مقفوداً.

عيشته صلى الله عليه وسلم قبل النبوة

محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم كان جده هاشم كبير قريش وسيدها، وكانت قريش أشرف قبائل العرب، وكانت إقامتهم بمكة وضواحيها، وكانت معيشتهم من التجارة في الثياب والبرّ (متاع البيت من جنس الثياب) وما يحتاجه العرب، وكان لهم رحلتان تجاريتان إلى الشام واليمن إحداهما في الصيف والأخرى في الشتاء، وكان أكثر ما يقتنون من النعم الإبل والغنم للانتفاع بظهورها وألبانها وأصوافها وأوبارها. فلما بلغ سنّاً يمكنه فيه أن يعمل عملاً كان ينفق على نفسه من عمل يده، وقد كانت فاتحة عمله رعاية الغنم، كما هي سنة الله تعالى في أنبيائه وأصفيائه؛ لتدريبهم على رعاية الخلق بالرفق الذي تستدعيه هذه الرعاية، فكان ينفق من أجرة رعايته، ثم كان يتجر فيما كانت تتجر فيه قريش وينفق من كسب تجارته. وفي كل ذلك كان يعمل على قدر الحاجة، لا مستكثراً من الدنيا ولا تاركاً لها تركاً كلياً، ليهينه الله تعالى لما أراه سبحانه منه من التفرغ للدعوة إلى دينه القويم.

تعبده صلى الله عليه وسلم قبل البعثة

كان من العرب قبل الإسلام من ينتمي إلى دين اليهودية، ومنهم من يدين بالنصرانية. على ما فيهما من تغيير وتحريف، والباقون عبدة أصنام وأوثان، وكان على ذلك عامة قريش إلا نَفَرًا قليلاً منهم كانوا يعيرون على قومهم عبادة هذه التماثيل. وقد فطّر سيدنا محمد بن عبد الله - صلوات الله عليه وسلامه- على طهارة القلب وزكاء النفس. فطره الله تعالى على ذلك ليكون على تمام الصلاحية لتلقى شريعته المطهرة وإيصالها إلى الخلق على أتم وجه وأكمله.

فلذلك كانت نفسه الكريمة مَجْبُولَةً على ما هو الحق، لا تعرف غيره، ولا تقبل سواه، فكان يَأْتَفُ عن الباطل بطبعه ويَأْلَفُ الحق بسَجِيَّتِهِ، فلم يحكم عليه شيء من عادات قومه: لا في تحسين باطل ممقوت، ولا في تقبيح حق مقبول.

ولقد كانت تلك فطرة أبيه إبراهيم عليه الصلاة والسلام التي فُطِرَ عليها قبل نبوته؛ كما كان ذلك شأن سائر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام: يُفْطَرُونَ على الإقبال على الله تعالى، وتنصرف همهم وأنفسهم الزَكِيَّةَ قبل نبوتهم عما يكون عليه أقوامهم من باطل العقائد وفساد العادات والتعبادات.

نشأ صلى الله عليه وسلم مُقبِلاً على الله تعالى بقلبه، خالصاً لله تعالى، حَنِيفاً لَمْ يَحْمِ الشِّرْكَ حول قلبه الكريم، فكان بأصل فطرته مُبْغِضاً لهذه الأوثان، نافرأ من هذه المعبودات الباطلة، فلم يكن يحضر لها عيداً ولا يتقرب إليها ولا يَحْفَلُ بها، وإنما كان يعبد خالق الكون وحده، مقبلاً عليه سبحانه بما هو مظهر العبودية والإخلاص من تفكير وتمجيد.

وكان يطوف بالكعبة ويحج كما كان الناس يحجون أتباعاً لمِلَّةِ سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام. ولم يثبت من طريق صحيح التزامه التبعيد على شريعة أحد من الأنبياء السابقين صلوات الله عليهم أجمعين.

والذي ثبت أنه صلى الله عليه وسلم كان يختلي في غار حراء من كل سنة شهراً (وكان يوافق ذلك شهر رمضان)، يعبد الله تعالى بالتفكير، ويطعم المساكين مما كان يتزود به في مدة خَلْوَتِهِ (وروي أنه كان يتزود الكعك والزيت، وكان كلما فرغ زادهُ رجع إلى أهله فتزود وعاد)، وكان إذا انتهى من خَلْوَتِهِ ينصرف إلى الكعبة فيطوف بها سبعاً أو ما شاء الله من ذلك قبل أن يرجع إلى بيته.

ويسمى حراء: جبل الثور، وهو على يسار السَّالِكِ إلى عَرَفَةَ، وبه ذلك الغار الذي كان يتعبد فيه النبي صلى الله عليه وسلم، وهو ضَيْقُ المدخل، ومساحته من الداخل تقرب من ثلاثة أمتار، وبه نزل الوحي عليه صلى الله عليه وسلم لأول مرة كما سيجيء، ويقال أن جده عبد المطلب كان يتعبد في حراء، ثم تبعه في ذلك من كان يتعبد منهم كورقة بن نوفل وأبي أمية بن عبد العزى.

وقد كان صلى الله عليه وسلم يحب العزلة والخلوة من زمن طفولته إلى أن بعثه الله تعالى رحمة للعالمين.

وقبيل مبعثه كان لا يرى رؤيا إلا جاءت كقَلْقُ الصبح، أي واضحة وصريحة كوضوح ضوء الصباح وإنارته، أي أنها تتحقق في اليقظة مثل ما يراها في المنام، فكان ذلك مقدمة لنبوته صلى الله عليه وسلم.